الرحمة النبوية بغير المسلمين
وصايا ومواقف عملية
وبيان أسباب الشدة النبوية
في بعض المواقف

إعداد:
سليمان بن محمد بن خلفان الكعبي
مشرف تربوي (مادة التربية الإسلامية)
وزارة التربية والتعليم – سلطنة عمان

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على إمام المرسلين ورحمة الله للناس أجمعين، وعلى آبه وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله ﷻ كتب على نفسه الرحمة فقال ﷻ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، كما أرسل رسوله محمدا ﷺ إماما ورحمة للعالمين، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وكأن الله ﷻ -في هذه الآية- حصر بعثته ﷺ في الرحمة، لما لها من دور عظيم، وقيمة كبيرة وهامة في الدعوة لله ﷻ، ووصف الله نبيه ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، وقد تجلت مظاهر الرحمة النبوية في معاملته للناس كافة، المسلم وغير المسلم، وفي هذا البحث المبسط سأحاول الكشف عن بعض مظاهر الرحمة النبوية بغير المسلمين من خلال مواقف من حياته ومعاملاته اليومية للبشر، وكذلك من خلال وصاياه وتوجيهاته لأصحابه في كيفية التعامل مع غير المسلمين.

ويهدف هذا البحث إلى بيان الخلق النبوي في الرحمة بغير المسلم، والتعرف على التوجيهات الربانية الواردة في آيات القرآن الكريم في كيفية معاملة غير المسلمين، والوقوف على بعض أقوال النبي ﷺ وتوجيهاته التي تدعو للرحمة بغير المسلمين، مع طرح نماذج عملية من حياة النبي ﷺ تؤكد رحمته بغير المسلمين، بالإضافة إلى استخلاص آثار الرحمة النبوية على غير المسلمين، كما سيتناول البحث توضيحا لأسباب شدة النبي ﷺ في التعامل مع بعض غير المسلمين في بعض المواقف والمواطن التي شهدتها حياته النبوية عليه السلام.

وجاء هذا البحث موزعا على مقدمة، وتعريف بمصطلحات البحث، وثلاثة مباحث وخلاصة كالآتي:

المقدمة.

مصطلحات البحث: الرحمة – غير المسلم.

المبحث الأول: التوجيهات الربانية في معاملة غير المسلمين.

المبحث الثاني: الرحمة النبوية بغير المسلمين ويتضمن الآتي:

١. حرص النبي ﷺ على دعوة وهداية غير المسلمين.

٢. وصايا النبي ﷺ للمسلمين في معاملة غير المسلمين (في السلم والحرب).

٣. مواقف نبوية عملية في التعامل مع غير المسلمين.

٤. آثار الرحمة النبوية على غير المسلمين.

المبحث الثالث: الشدة النبوية في معاملة غير المسلمين نماذج وأسباب.

الخاتمة: خلاصة نتائج البحث.

واتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي لأقوال النبي ﷺ وأفعاله

العملية التي تؤكد على رحمته عليه الصلاة والسلام، واستنتاج أبرز نتائج التعامل النبوي بخلق الرحمة مع غير المسلمين، وأسباب الشدة التي ظهرت في معاملة بعضهم.

أما فيما يتعلق بالأحاديث النبوية وتخريجها فقد حرص الباحث على انتقاء الأحاديث الصحيحة والتأكد من صحتها، فغالبها من أحاديث الصحيحين (البخاري ومسلم)، أما بخصوص الأحاديث التي انتقاها من بقية كتب السنة فقد حرص أيضا على التأكد من صحتها من خلال ما قاله علماء الحديث، كالشيخ الألباني، والاستفادة مما قاله محققو تلك الكتب.

والله تعالى أسأل الإعانة والتوفيق، والتيسير والقبول، وأن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به من يقرأه، وصلى الله وسلم على رسوله الكريم وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

مصطلحات البحث

ويشمل الرحمة، وغير المسلم.

أولا الرحمة:

تأتي في اللغة بمعان كثيرة منها الرقة والعطف والرأفة، وجاء في القاموس المحيط «الرحمة: الرقة والمغفرة والتعطف»[١]، وقال ابن منظور: «الرحمة المغفرة وهي رقة القلب وعطفه»[٢]، وقال الجرجاني هي «إرادة إيصال الخير»[٣].

وفي الاصطلاح: حالة وجدانية تعرض غالبا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان»[٤]، وقيل أنها «رقة القلب وانعطاف النفس المقتضي للمغفرة والإحسان»[٥]، ومما سبق يمكننا القول بأن الرحمة فعل الراحم من رقة وتلطف وتعطف واحسان، فهي رقة في القلب يصاحبها حب الخير للآخر، وعطف عليه ورأفة به من حصول الضرر له، والمغفرة والعفو والتسامح من الأمور التي تصاحب الرحمة، ومن صفات الراحم.

(١) الفيروز أبادي، القاموس المحيط ج٤، ص ٦٨.
(٢) ابن منظور، لسان العرب ج١٢، ص ٢٣٠.
(٣) الجرجاني، كتاب التعريفات، ص ١١٠.
(٤) الحسيني، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية.
(٥) العفيفي، من صفات الرسول Ω الخِلقية والخُلقية، ص ٣٦٤.

ثانيا: غير المسلم:

هو كل من لم يؤمن بالله ﷻ ربا واحدا، لا شريك له ولا ندا، ولم يؤمن برسالة النبي محمد ﷺ بعد بعثته، ولم يدخل في دين الإسلام الذي ارتضاه الله ﷻ للناس، ونسخ به الشرائع والأديان السماوية السابقة، وأيضا من أنكر أصلا من أصول الإسلام المعلومة بالضرورة كالصلاة والصوم والزكاة والحج، ويطلق عليهم لفظ الكفر، والواحد منهم كافر، والكفر وصف يشمل كل من كذب الرسول عليه الصلاة والسلام، في شيء مما جاء به، أو صدقه وامتنع عن الدخول في الإسلام، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكفر يكون بتكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه»[1]، والكفار إما أهل حرب، وإما أهل عهد، وأهل العَهْد ثلاثة أصناف: أهل ذمة، وأهل هدنة، وأهل أمان، والخلاصة أن غير المسلم يراد به كل ما سوى المسلمين من أهل الملل والأديان الأخرى غير الإسلام.

(١) (ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل ج١، ص ٢٤٢.

المبحث الأول
التوجيهات الربانية في معاملة غير المسلمين

الرحمة صفة من صفات الله ﷻ، فهو سبحانه الرحمن الرحيم، كما كتب ﷻ على نفسه الرحمة، وأخبر أنه هو الغفور لعباده الذين تابوا وعملوا الصالحات، والرحيم بهم في الدنيا والآخرة، ومن رحمة الله ﷻ بعباده أن أرسل إليهم رسولا منهم رحيما بهم، ووصفه بأنه على خلق عظيم، وأنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقد ظهرت رحمته ﷺ بالخلق أجمعين المسلم منهم والكافر، حتى بلغ به الحال من شدة حرصه ورحمته بالناس إلى إرهاق نفسه وازهاقها في سبيل دعوته لهم، واقناعهم بالدخول في دين الإسلام، حتى نزل عليه قول الله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]، وقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، كما بين الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ كيفية التعامل مع غير المسلمين مما يقتضي الرحمة بهم وحسن المعاملة لهم، وفيما يلي بعضا من التوجيهات الربانية الواردة في القرآن الكريم التي توضح كيفية التعامل:

- أوصى الله ﷻ نبيه ﷺ باتباع أحسن الأساليب في دعوة الكفار والمخالفين، كل ذلك من قبيل الرحمة والرفق في الدعوة، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى

هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥]، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية «من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب»(١)، كما يقول السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم كل على حسب فهمه وقوله وانقياده، ثم يقوم وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين(٢).

وقريبا من معنى هذه الآية فقد جاء توجيه الله ﷻ للنبي ﷺ في مجادلة أهل الكتاب خاصة، بحسن المجادلة فقال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦]، والمعلوم أن أهل الكتاب غير مسلمين، ومنهم العدو الذي يظهر عداوته، ومع ذلك جعل الله ﷻ مجادلتهم بالحسنى، ومعاملتهم بالرفق والرحمة، إلا من أبى منهم، وبغى واعتدى بظلم على مسلم، وحاد عن وجه الحق وعاند وكابر، وأعلن الحرب على الإسلام والمسلمين(٣).

- حض الله ﷻ نبيه عليه السلام على معاقبة الكفار بمثل ما صدر منهم، من غير زيادة على ذلك، وبين له أنه من باب الاحسان والرفق والرحمة بأن الصبر على أذاهم والعفو عن خطأهم أفضل وأحسن في سبيل تحقيق أهداف الدعوة، ونشر الخير، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل].
- ومن توجيهات الله ﷻ لنبيه عليه السلام في معاملة غير المسلمين ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٦١٣.
(٢) السعدي، تيسير الكريم المنان، ص٤٥٢.
(٣) أنظر: التفسير الميسر، ص ٤٠٢.

﴿وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣]، وهذا أمر من الله عز ذكره لنبيه ﷺ بالعفو عن هؤلاء القوم(١)، وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن اليهود وما يصدر عنهم من نقض للعهود والمواثيق وصد عن سبيل الحق والدين، وتحريف الآيات عن مواضعها، فهم أهل خيانة وغدر يسيرون على منهاج أسلافهم -إلا قليلا منهم، ومع ذلك يوجه الله ﷻ نبيه ﷺ إلى العفو عن سوء معاملتهم، والصفح عنهم(٢)، في إشارة إلى خلق الرفق والرحمة التي ينبغي أن يتحلى بها الداعي إلى سبيل ربه تبارك وتعالى.

- ومن توجيهات الله ﷻ التي تشعرنا بالتأديب الرباني للنبي ﷺ على حسن المعاملة والرفق بالناس قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف]، فبعد أن عدد الله ﷻ ما عدده من أحوال المشركين، وبين سفه رأيهم وضلال سعيهم أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاق الناس، والعفو هنا ضد الجهد، وأمره أيضا بأن يأمر بالمعروف وهو كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن لها النفوس، كما أمره بالإعراض عن الجاهلين(٣)، وهذه الجملة من الأخلاق الربانية كلها عوامل مساعدة على حسن الخلق، وتنطلق من الرحمة في معاملة الخلق -مسلمهم وكافرهم-.

- ومن التوجيهات الربانية للنبي ﷺ قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف]، حيث أن رسول الله ﷺ كان حريصا على هداية كفار مكة إلى الإسلام، وكاد

(١) تفسير الطبري، ج١٠، ص١٣٤.
(٢) التفسير الميسر، ص ١٠٩.
(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج ٣، ص ١٢٥.

من شدة رحمته وشفقته عليهم أن يهلك نفسه، حزنا وحسرة بسبب إصرارهم على كفرهم، فنهاه الله ﷻ عن ذلك، يقول الزمخشري: «شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجدا عليهم، وتلهفا على فراقهم[1]»، وبعد هذه الاستنكار الرباني من شدة الشفقة النبوية والرحمة بمن لم يؤمن بآيات الله وأصر على كفره وعناده، وجه الله ﷻ نبيه بقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، ففي الآية توجيهان للنبي ﷺ الأول: أن الهدى بيد الله ﷻ وحده، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، والتوجيه الثاني: عدم إهلاك النفس وتحسرها من شدة الشفقة والرحمة على من أصر على الكفر وعدم الإيمان.

- كما أن الله ﷻ وجه نبيه عليه السلام إلى عدم الحزن عليهم فقال جل ذكره: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران]، أي: «لا يُدخِل الحزن إلى قلبك -أيها الرسول- هؤلاء الكفار بمسارعتهم في الجحود والضلال[2]»، قال أبو حيان في البحر المحيط «قيل: مثير الحزن هو شفقته ﷺ وإيثاره إسلامهم حتى ينقذهم من النار، فنهي عن المبالغة في ذلك... وهذا من فرط رحمته للناس، ورأفته بهم[3]»، ومما سبق من الآيات يتبين لنا مدى الرحمة النبوية بغير المسلمين، حتى كاد يهلك نفسه، تحسرا عليهم وحزنا بسبب إعراضهم.

- ومن توجيه الله ﷻ لنبيه ﷺ، ولجميع المسلمين في معاملة غير

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥١٨.
(٢) التفسير الميسر، ص ٧٣.
(٣) أبو حيان، البحر المحيط، ج٣، ص١٢٦.

المسلمين ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة]، فقد أباح الله ﷻ للمؤمنين معاملة الكفار معاملة حسنة إذا لم يكونوا أعداء مقاتلين، والبر بهم والقسط في معاملتهم لاسيما إذا كانوا من الأقارب، وفي الآية إشارة للمؤمنين بأنهم «إذا كانوا في حال قوة وعدم خوف وفي مأمن منهم، وليس منهم قتال، وهم في غاية المسالمة فلا مانع من برهم بالعدل والإقساط معهم، وهذا مما يرفع شأن الإسلام والمسلمين، بل وفيه دعوة إلى الإسلام بحسن المعاملة وتأليف القلوب بالإحسان إلى من أحسن منهم، وعدم معاداة من لم يعادلهم[1]»، ومن هذا المنطلق عامل رسول الله ﷺ غير المسلمين كما سنبينه في المبحث التالي.

(١) تتمة أضواء البيان، ج٨، ص١٠١.

المبحث الثاني
الرحمة النبوية بغير المسلمين

شهد الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ بأنه رحمة للعالمين جميعا، المؤمن منهم والكافر، وأخبر عنه أنه حريص على هدايتهم، وادخالهم في دين الإسلام جميعا، ورحمة النبي ﷺ بالمسلمين المؤمنين أمر معلوم؛ فهم أتباعه ومحبوه، وهم الذين يعتقدون عقيدته، ويدينون بدينه، لكن رحمته صلوات الله وسلامه عليه لم تقتصر على المؤمنين بل شملت حتى الكافرين به، ويؤكد الرسول ﷺ ذلك بقوله: (أنا نبي الرحمة)، وبقوله (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) -أخرجهما الإمام مسلم في صحيحه-، فرحمته عليه السلام اقتضت منه عدم اللعن على مخالفيه، وإنما الحرص على هدايتهم وحسن معاملتهم، وقد جاء في وصفه ﷺ في التوراة أنه «لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظ، وَلاَ سَخَّاب بِالأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا» رواه البخاري (رقم الحديث: ٢١٢٥)، والمتتبع للسيرة النبوية يجد الكثير من الشواهد الدالة على الرحمة النبوية في التعامل مع غير المسلمين، وكل ذلك برحمة منه ﷻ وفضل ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقد تعددت الشواهد الواردة

في سيرته ﷺ التي تؤكد رحمته بغير المسلمين، وفيما يلي سأقف على بعض من تلك الأمثلة، وقد قسمتها على ثلاثة جوانب هي:

- **حرص النبي عليه السلام على دعوة وهداية غير المسلمين:**

تعددت الأمثلة من السنة النبوية التي تشير إلى حرص النبي ﷺ على هداية غير المسلمين، والسعي إلى إنقاذهم من النار والهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة، وذلك كله نابع من رحمته بهم، وسماحته في معاملتهم، وحسن خلقه معهم، فتارة يعفوا، وتارة يدعو لهم بالهداية، وأخرى يعظهم ويذكرهم حتى في آخر رمق من حياتهم رجاء إنقاذهم من النار، «فقد كانت العلاقة بينه ﷺ وبين المخالفين لهم أعلى بكثر من مجرد علاقة سلام وئام، إنها كانت علاقة برٍّ بكل معاني الكلمة[1]»، ومن بين تلك الشواهد النبوية على رحمته بغير المسلمين والحرص على دعوتهم وهدايتهم الأمثلة الآتية:

١. عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: (كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ أَسْلِمْ فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) رواه البخاري (رقم الحديث: ١٣٥٦)، ففي هذا الموقف نتلمس مدى رحمة النبي ﷺ وشفقته على غير المسلمين، وحرصه واهتمامه بدخولهم في الإسلام، بالإضافة إلى حسن التعامل معهم وذلك من خلال عيادة مريضهم، والسؤال عنهم، وترغيبهم بالإسلام، والفرح بإنقاذهم من النار.

٢. عن أَبي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه، قال: « كَانَ الْيَهُودُ يَتَعَاطَسُونَ عِنْدَ النَبِيّ ﷺ يَرْجُونَ أَنْ يَقول لَهُمْ: يَرْحَمُكُمُ الله. فيَقولُ: يَهْدِيكُمُ

(١) السرجاني، فن التعامل النبوي مع غير المسلمين، ص ١٥٤.

الله وُيصْلحُ بَالَكُمْ « رواه الإمام أحمد في مسنده (رقم الحديث: ١٩٥٨٦)، وفي هذا من الدلائل على جواز الدعوة للكافر بالهداية بخلاف الرحمة يقول المباركفوري: "ولا يقول لهم: يرحمكم الله، لأن الرحمة مختصة بالمؤمنين، بل يدعو لهم بما يصلح بالهم من الهداية والتوفيق والإيمان[1]».

٣. عَنْ جَابِرِ بن عَبدالله ﷺ قَالَ: "قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه ﷺ: أَخْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ قَالَ اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا" رواه الترمذي (رقم الحديث: ٣٩٤٢).

٤. وجاء في الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: (اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ)، أخرجه البخاري (رقم الحديث: ٢٩٣٧) ومسلم (رقم الحديث: ٦٣٨٧)، ففي هذا الحديث والذي قبله تظهر الرحمة النبوية بمن خالفه من غير المسلمين، قال العيني: "وهذا من خلقه العظيم، ورحمته على العالمين؛ حيث دعا لهم وهم طلبوا الدعاء عليهم[2]»، وقد استجاب الله ﷻ لنبيه ﷺ، وجاء بهم أجمعين مهتدين.

٥. وعند الإمام مسلم في صححه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا

(١) تحفة الأحوذي ج٨، ص١٠.
(٢) عمدة القارئ، ج٢٣، ص ٢٩.

بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ، فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ، قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَبْشِرْ قَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا"، صحيح مسلم (رقم الحديث: ٦٣٤٦)، وهذا الحديث فيه من الرحمة النبوية بمن حوله من أصحابه، وفيه الدعوة لغير المسلمين من أقاربهم بالهداية الإسلام.

٦. عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَأَمَرَ فَدُعِيَ لَهُ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ فَقَالَ نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ" رواه البخاري (رقم الحديث: ٣٠٠٩)، وهنا نجد حرص النبي عليه السلام ورحمته بالكافر، فقد أوصى عليا رضي الله عنه بالتأني أهل خيبر، والبدء بدعوتهم للإسلام، قال ابن حجر: "ويؤخذ منه - أي الحديث- أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله[1]"، وهذا من حرصه ورحمته عليه السلام بمخالفيه، لأن دعوته لم تكن لإكراه الناس على الدين، او قتلهم وقتالهم، بل كانت من أجل اقناعهم بدين الإسلام.

(١) فتح الباري، مجلد٧، ص٥٩٧.

٧. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي المَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ» فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ المِدْرَاسِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَنَادَاهُمْ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا» فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا القَاسِمِ، فَقَالَ: «ذَلِكَ أُرِيدُ» ثُمَّ قَالَهَا الثَّانِيَةَ، فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا القَاسِمِ، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «اعْلَمُوا أَنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا الأَرْضُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» رواه البخاري (رقم الحديث: ٧٣٤٨)، وفي هذا الحديث نجد الحرص النبوي على البلاغ لغير المسلمين (اليهود) ودعوتهم للدين، وقد كرر ﷺ دعوتهم للإسلام بقوله: « يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا»، أشهدهم على أنه بلغهم رسالة ربهم فشهدوا على ذلك، وإن حرص النبي ﷺ على هذا البلاغ والتأكيد عليه إنما هو نابع من رحمته الفياضة بهم من الوقوع في العذاب الدنيوي المتمثل في الجلاء عن الأرض، والعذاب الأخروي في نار جهنم.

- **وصايا النبي ﷺ للمسلمين في معاملة غير المسلمين (في السلم والحرب):**

حرص النبي ﷺ على حسن المعاملة للناس أجمعين، منطلقا من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾ [سبأ]، بما أن رسالته عامة فإن رحمته شملت عموم الناس أيضا، لذا فقد كان حريصا على حسن المعاملة، والرحمة في التعامل مع الجميع، وبذلك أوصى أصحابه ﷺ أجمعين، ولم تقتصر وصاياه ﷺ في حال السلم فقط بل امتدت حتى في حال الحرب، ومن أبرز وصاياه في حسن معاملة غير المسلمين:

١. عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمُ النَّاسَ» أخرجه البخاري (رقم الحديث: ٧٣٧٦)، ولفظ الناس هنا عام يشمل المسلم والكافر، والرحمة بالكافر أمر أقرته الشريعة فيما لو لم يكن محاربا للمسلمين في زمن الحرب، أو صدر منه ضرر عظيم على مسلم يوجب القصاص منه.

٢. عَنْ أَسْمَاءَ بِنت أَبِي بَكْر رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَتْ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَمُدَّتِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ مَعَ ابْنِهَا، فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ؟ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ» رواه البخاري (رقم الحديث: ٢٦٢٠و ٥٩٧٨)، يقول ابن حجر: «وَفِيهِ مُوَادَعَة أَهْل الْحَرْب وَمُعَامَلَتُهُمْ فِي زَمَن الْهُدْنَة، وَالسَّفَرُ فِي زِيَارَة الْقَرِيب، ونقل عن الخطابي قوله: أَنَّ الرَّحِمَ الْكَافِرَةَ تُوصَلُ مِنْ الْمَالِ وَنَحْوِهِ كَمَا تُوصَلُ الْمُسْلِمَة وَيُسْتَنْبَطُ مِنْهُ وُجُوب نَفَقَة الْأَب الْكَافِر وَالْأُمّ الْكَافِرَة وَإِنْ كَانَ الْوَلَد مُسْلِمًا[1]» وهذا كله من رحمة النبي عليه السلام بمن حوله في صلتهم لأرحامهم والبر بهم ما لم يكونوا مقاتلين للإسلام وأهله.

٣. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» رواه البخاري (رقم الحديث: ٦٩١٤)، وفي رواية الإمام أحمد « مَنْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا» مسند الإمام أحمد (رقم الحديث: ١٨٠٧٢)، وفي سنن أبي داود «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

(١) فتح الباري، مجلد ٥، ص ٢٨٨.

سنن أبي داود (رقم الحديث: ٣٠٥٢)، ففي هذه الأحاديث يوصي النبي ﷺ بالوفاء بالعهد، وتحريم قتل أهل الذمة، أو انتقاصهم، وتكليفهم فوق طاقاتهم وذبك في حال كونهم مستأمنين معاهدين في بلاد المسلمين، وهذا من عدل الإسلام وسماحته، وفيه دلالة على عظيم أخلاقه ﷺ ورحمته بالضعفاء والمستأمنين.

٤. عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كَانَ «إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا» أخرجه مسلم (رقم الحديث: ٤٤٩٧).

٥. عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا" رواه مسلم (رقم الحديث: ٦٤٤٠)، وهنا يوصي النبي ﷺ بأهل مصر وكانوا في ذلك غالبهم من الأقباط الذين هم على النصرانية (أي غير مسلمين) وجعل لهم ذمة: أي حقا وحرمة، ثم بين سبب تلك الذمة بأن لهم الرحم التي كانت من قبل هاجر أم إسماعيل النبي ﷺ، فقد كانت مصرية، وكذلك من قبل مارية القبطية أم إبراهيم بن النبي محمد ﷺ، لذا نجد الرحمة وصلة الرحم حاضرة في وصاياه عليه السلام بها وإن كان مستحقها غير مسلم.

٦. عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: ثُمَّ لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ، فَقَالَ: " يَا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ

ظَلَمَكَ" أخرجه الإمام أحمد في مسنده (رقم الحديث: ١٧٣٣٤)، وهذا التوجيه النبوي للصحابي الجليل عقبة بن عامر عام يشمل المسلم وغير المسلم، حيث لم يرد فيه تخصيص بالمسلمين، كما أن المواقف النبوية في معاملة غير المسلمين تؤكد أن هذه الوصية تشمل غير المسلمين؛ كما أن النبي ﷺ وصل أقاربه من غير المسلمين، وأجاز لأصحابه صلة أقاربهم من غير المسلمين كما في حديث أسماء، وأعطى من حرمه من أهل مكة، وأعرض عمن ظلمه، بل وعفى عنهم، ويتأكد هذا المعنى من خلال الآية التي في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩]، وأن غير المسلمين من الجاهلين.

- **مواقف نبوية في التعامل مع غير المسلمين:**

المعلوم أن رحمته ﷺ شملت المسلم والكافر، والإنسان والحيوان والجماد، ومما يؤكد عموم رحمته وشمولها للكافر فضلا عن المسلم ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: " قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً" رواه مسلم (٦٥٥٦)، ففي هذا الحديث يؤكد لنا ﷺ وضوح دعوته، وأنه رحمة، ومما يعزز هذا الأمر ويؤكده ما ورد عنه ﷺ من مواقف عملية في حياته والتي منها:

١. في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَهْطًا مِنَ الْيَهُودِ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَيْكُمْ فَقُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟ قَالَ: قَدْ قُلْتُ: عَلَيْكُمْ" أخرجه البخاري (رقم الحديث: ٦٠٢٤)، ومسلم (رقم الحديث: ٥٦٢١)، ففي هذا الحديث يوجه النبي ﷺ السيدة عائشة

ﷺ -وهو توجيه لعموم الأمة- بالرفق والرحمة حتى مع من يصدر منه الخطأ المقصود الذي لا يوقع الضرر المباشر على الآخر، يقول النووي معلقا على هذا الحديث: "وهذا من عظيم خلقه ﷺ وكمال حلمه، وفيه حث على الرفق والصبر والحلم وملاطفة الناس ما ترع حاجة إلى المخاشنة[1]"، والرفق يفيد معنى «لين الجانب بالقول والقعل، والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف[2]"، فمن هذا الموقف نتلمس الخلق النبوي الرفيع المستمد من المنهج الرباني في الرفق والرحمة مع غير المسلم حتى مع ما صدر منه من أذى.

٢. وعن عُرْوَةُ بن الزُبير ﷺ أَنَّ عَائِشَةَ ﷺ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" رواه البخاري (رقم الحديث:٣٢٣١).

٣. وعَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ مَقْتُولَةً فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ رواه

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج١٤، ص٣٧١.
(٢) فتح الباري، مجلد١٠، ص ٥٥٢.

البخاري (رقم الحديث: ٣٠١٥)، ومسلم (رقم الحديث: ٤٥٢٢)، وهذا يشير إلى موقفه ﷺ من قتل الضعفاء حيث أنكر الفعل الذي حدث، ونهى عن مثل في المستقبل، بل زاد في ذلك بالنهي عن قتل الصبيان الذين الضعفاء، وهذا من كمال رحمته عليه السلام بالضعيف الذي لا حيلة له ولا قوة.

٤. وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: (غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ فَأَتَتْ الْيَهُودُ فَشَكَوْا أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْرَعُوا إِلَى حَظَائِرِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلَا لَا تَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهَدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا) رواه أبو داود (رقم الحديث: ٣٨٠٦)، وهنا ندرك الموقف النبوي العظيم الذي تتجلى في الأخلاق بكمالها، والرحمة في صورة من صورها، فمع أن الموقف موقف غزو، واليهود قوم بهت، إلا أنهم لما شكوا إلى نبي الرحمة بأن الناس أسرعت لأخذ أموالهم ولم يمهلوهم ويعطوهم فرصة مراجعة النفس في الإسلام أو دفع الجزية، أمر عليه السلام برد أموالهم لهم، وبين الحكم الشرعي في إحلال أموال المعاهدين خصوصا، والكفار عموما، وهو أن تكون بحقها كالجزية أو التجارة وغيرها مما أجازته الشريعة الإسلامية.

٥. وروى أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ قَالَ مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي مَا

قُلْتُ لَكَ فَقَالَ أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ صَبَوْتَ قَالَ لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ" رواه البخاري (رقم الحديث: ٤٣٧٢)، ففي هذا الموقف نجد العفو النبوي النابع من الرحمة التي ملأت قلبه ﷺ، لا سيما وأن ثمامة استعطفه بقوله: " إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ"، فكان لهذا الموقف نتيجة عظيمة هي أحب لقلب النبي ﷺ من غيرها؛ وهي دخول ثمامة في الإسلام، وما كان ذلك ليحدث لولا الملاطفة والرحمة النبوية التي وجدها ثمامة في خلق النبي الكريم ﷺ.

٦. وأورد ابن حجر رواية من زيادة ابن هشام في سيرته تبين لنا موقفا نبويا آخر يفيض بالرحمة والرأفة بغير المسلمين، وذلك أن ثمامة توعد كفار قريش بقوله: " وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ"، فزاد ابن هشام في روايته بأنه -أي ثمامة- " ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْيَمَامَةِ فَمَنَعَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوا إِلَى مَكَّةَ شَيْئًا، فَكَتَبُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّك تَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ، فَكَتَبَ إِلَى ثُمَامَةَ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَمْلِ إِلَيْهِمْ[1]» وهذا الموقف يؤكد

(١) فتح الباري، مجلد ٨، ص ١١١.

الرحمة النبوية بغير المسلمين خاصة إذا ناشدوه الرحم والرحمة.

٧. وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي العِضَاهِ، يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ. قَالَ جَابِرٌ: فَنِمْنَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ ﷺ يَدْعُونَا فَجِئْنَاهُ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللَّهُ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ» ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رواه البخاري (رقم الحديث: ٢٩١٠)، وهنا تظهر صورة أخرى من صور التسامح والرحمة النبوية، فأن الرجل الكافر أراد قتل النبي ﷺ عندما كان يظن أن متمكن من ذلك، ولكن رسول الله ﷺ عفى عنه عندما تمكن من قتله، قال ابن حجر: «فَمَنَّ عَلَيْهِ لِشِدَّةِ رَغْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي اسْتِئْلَافِ الْكُفَّارِ لِيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُؤَاخِذْ بِمَا صَنَعَ، بَلْ عَفَا عَنْهُ[1]»، وصدقت السيدة عَائِشَةَ ﵂ حين قَالَتْ: «وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا) رواه البخاري (رقم الحديث: ٣٥٦٠)، ومسلم (رقم الحديث: ٥٩٩٩).

٨. وروى ابْنِ أَبِي لَيْلَى، أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ، وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ، كَانَا بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرَّتْ بِهِمَا جَنَازَةٌ فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ (كافر من أهل تلك الأرض)، فَقَالَا: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ، فَقَامَ فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا» رواه مسلم (رقم الحديث: ٢٢٢٢)، يظهر لنا من هذا الموقف أن رحمته ﷺ لم تقف عند الأحياء من غير المسلمين بل حتى الأموات شملتهم

(١) فتح الباري، مجلد٧، ص ٥٣٤

هذه الرحمة، بل «إن رسول الله ﷺ في هذا الموقف زرع في نفوس المسلمين التقدير والاحترام والرحمة لكل نفس إنسانية، وذلك على الإطلاق؛ لأنه فعل ذلك وأمر به، حتى بعد علمه أنه يهودي[1]».

٩. وفي يوم فتح مكة والكتائب تستعد لدخول مكة خرج أبو سفيان يستطلع الأمر، فمرت به الكتائب ومنها كتبة الأنصار وقائدها سعد بن عبادة، «فقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ وَهِيَ أَقَلُّ الْكَتَائِبِ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَرَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ قَالَ: مَا قَالَ؟، قَالَ كَذَا وَكَذَا فَقَالَ: كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ» رواه البخاري (رقم الحديث: ٤٢٨٠)، وذكر ابن حجر رواية عن الأُمَوِيّ فِي الْمَغَازِي « أَنَّ أَبَا سُفْيَان قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَمَّا حَاذَاهُ: أُمِرْت بِقَتْلِ قَوْمك ؟ قَالَ: لَا، فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَهُ سَعْد بْن عُبَادَةَ، ثُمَّ نَاشَدَهُ اللَّه وَالرَّحِم، فَقَالَ: يَا أَبَا سُفْيَان الْيَوْم يَوْم الْمَرْحَمَة، الْيَوْم يَعِزّ اللَّه قُرَيْشًا، وَأَرْسَلَ إِلَى سَعْد فَأَخَذَ الرَّايَة مِنْهُ فَدَفَعَهَا إِلَى ابْنه قَيْس، وَعِنْد ابْن عَسَاكِر عَنْ جَابِر قَالَ: لَمَّا قَالَ سَعْد بْن عُبَادَةَ ذَلِكَ عَارَضَتْ امْرَأَة مِنْ قُرَيْش رَسُول اللَّه ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيّ الْهُدَى إِلَيْك لَجَا حَيّ قُرَيْش وَلَاتَ حِين لَجَاء حِين ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ سَعَة الْأَرْض وَعَادَاهُمْ إِلَه السَّمَاء إِنَّ سَعْدًا يُرِيد قَاصِمَة الظَّهْر بِأَهْلِ الْحُجُون وَالْبَطْحَاء فَلَمَّا سَمِعَ هَذَا الشِّعْر دَخَلَتْهُ رَأْفَة لَهُمْ وَرَحْمَة، فَأَمَرَ بِالرَّايَةِ فَأُخِذَتْ مِنْ سَعْد وَدُفِعَتْ إِلَى ابْنه قَيْس[2]» وفي هذا

(١) الرحمة في حياة الرسول، ص ٢٠٤.
(٢) فتح الباري، مجلد ٨، ص١٢.

الموقف تظهر الرحمة النبوية وغلبتها في طبعه ﷺ؛ إذ لو لم تكن كذلك لأنتقم من قريش وكفارها، ولأستحل دماءهم وأموالهم، لأنهم آذوه وطردوه، وكذبوه وحاولوا قتله، وحاربوه مرارا وقتلوا من خيار أصحابه وأقاربه، وعلى رأس من قتلوه ومثلوا به عمه حمزة بن عبدالمطلب، ومع ذلك نجد رسول الله ﷺ يقول (كذب سعد) أي أخطأ في مقالته، ثم أردف ذلك بقوله « الْيَوْم يَوْم الْمَرْحَمَة، الْيَوْم يَعِزّ اللَّه قُرَيْشًا » حيث داخلته الرأفة والرحمة كما ذكر ابن حجر في روايته، فما أعظم هذا النبي؟!! وصدق الله ﷻ عندما مدحه فقال عنه أنه: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

- **آثار الرحمة النبوية بغير المسلمين:**

إن المتأمل في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحدثت عن الرحمة، وكذلك المتأمل لمواقف النبي ﷺ التي فاضت بالرحمة في تعاملاته مع مخالفيه ليجد ثمار عظيمة يانعة، تظهر في حلل متنوع وثمار تؤتي أكلها ولو بعد حين، فمن تلك الثمار والآثار المترتبة على الرحمة:

ساهمت في كسب قلوب المدعوين واستمالتهم للإسلام، يقول الله ﷻ عن نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ففي هذه الآية يبين الله ﷻ أثرا من آثار رحمة النبي ﷺ بمن حوله وهو من أعظم الأثار وهو بقاؤهم حوله، يقول صاحب روح البيان في تفسير القرآن: «فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله ﷻ وهى ربطه على جأشه وتخصيصه بمكارم الأخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة أمرك وإسلامك للعدو وَلَوْ لم تكن كذلك بل كُنْتَ فَظًّا جافيا فى

المعاشرة قولا وفعلا غَلِيظَ الْقَلْبِ.. لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ اى لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا إليك وتردوا فى مهاوى الردى[1]».

كما أنَّها سبب للتعرض لرحمة الله، والدخول في رحمته وعفوه؛ جزاء لرحمتهم بخلقه، فقد ورد في حديث أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنهما، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ» أخرجه البخاري (رقم الحديث: ٧٤٤٨)، يدل هذا الحديث بمنطوقه على أن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله، وبمفهومه على أن من يرحم الناس يرحمه الله، فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، فمتى ما أراد أن يستبقي رحمة الله ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم، ومما يؤكد ما ورد سابقا ما صح عنه عليه السلام من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو المَرفُوعِ إلى النَّبِيِّ ﷺ حَيثُ قال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» رواه أبو داود في سننه (رقم الحديث: ٤٩٤١)، فرحمة الله قريبه من المحسنين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، والمحسنون هم المحسنون في عبادة الله، والمحسنون إلى عباد الله.

ومن ثمار الرحمة بغير المسلمين التي يمكن إدراكها من مواقف معاملة النبي ﷺ لغير المسلمين غرس الطمأنينة والسكينة في نفوسهم، والإسهام في دخولهم للإسلام، وانتشار الإسلام، وقد ظهر هذا من موقف النبي ﷺ مع الغلام اليهودي الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه -سبق تخريجه-[2]، فقد حيث أسلم اليهودي قبل موته، وكذلك من خلال موقفه عليه السلام مع

(١) روح البيان في تفسير القرآن، ج٢، ص ١٢٠.
(٢) سبق تخريجه.

ثمامة بن أثال حيث قال ﷺ: "فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ"[1] وذلك بعد أن منَّ النبي ﷺ وعفا عنه وفك أسره، وكذلك المواقف التي سبق ذكرها عند الحديث عن حرص النبي ﷺ على دعوة وهداية غير المسلمين[2].

ومن ثمارها أنها أسهمت في محبة الناس للنبي عليه الصلاة والسلام، وأكدت على صدق نبوته ﷺ ونبل أخلاقه وعظيم صفاته، وذلك واضح من الموقف السابق لثمامة بن أثال ﷺ، ومن المواقف التي تؤكد على هذه الثمرة قول صفوان بن أمية يوم حنين، بعدما رأى من أخلاق النبي ﷺ وحسن تعامله معه، ورحمته به بعد فتح مكة وفي يوم حنين، من العفو عنه، وتأليف قلبه بما أعطاه من غنائم وأموال مع انه لم يكن أسلم حتى تلك اللحظة، فجميع تلك المواقف أثرت في نفس صفوان، فقَالَ: «وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ» أخرجه مسلم (رقم الحديث: ٥٩٧٦)، وصدق الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت]، فالرحمة والإحسان سبيل إلى فتح القلوب واستمالتها نحو الأمر المطلوب.

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

المبحث الثالث
الشدة النبوية في معاملة غير المسلمين (نماذج وأسباب)

مما سبق ذكره من مواقف ووصايا للنبي ﷺ في رحمة غير المسلمين ندرك تمام الإدراك سعة الرحمة النبوية، وهو القائل عن نفسه: (وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً)، ومع هذا قد نجد بعض المواطن التي تظهر فيها الغلظة والشدة النبوية على غير المسلمين، وقد حاول أعداء الإسلام النيل من رسول الله ﷺ في رحمته، ووصفه بالشدة والغلظة؛ مستغلين بعض الشواهد المروية في ذلك لتحقيق أغراضهم، لكن المتأمل في المواقف التي ظهرت فيها شدة النبي ﷺ على مخالفيه يجدها مسببة بأسباب؛ وهذه الأسباب تعد مخالفة للشريعة الإسلامية من جهة، ومن جهة أخرى نجد فيها التعدي الكبير على حقوق الأخرين، كما أن بعضها يسهم في انتشار الفوضى والظلم في المجتمع الإسلامي، وكل هذه الأمور تحتاج إلى مواقف صارمة مع من صدرت منهم؛ لاسيما إن كان الأمر يتعلق بحقوق الغير في المجتمع، وأن الأمر يتكرر من الشخص لأكثر من مرة، وفيما يلي بعضا من هذه الأسباب:

١. الكفر والنفاق المصاحب للعداء الظاهر للإسلام ومقاتلة المسلمين:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم]، والغلظة هنا تقتضي الشدة في المعاملة، وسبب هذا الأمر الرباني للنبي ﷺ هو عداوة الكفار لدين الإسلام، وإصرارهم على قتال المسلمين، ومما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة:١٩٠-١٩١]، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ فيه «تَهْيِيجٌ وَإِغْرَاءٌ بِالْأَعْدَاءِ الَّذِينَ هَمَّتُهُمْ قِتَالُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، أَيْ كما يقاتلونكم فاقتلوهم أَنْتُمْ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦]، ولهذا قال في الآية: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾، أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم، كما هِمَّتُهُمْ مُنْبَعِثَةٌ عَلَى قِتَالِكُمْ، وَعَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنْ بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصا[1]».

ولكن هذا التوجيه ينبغي أن لا يقرأ بمعزل عن غيره من التوجيهات الربانية التي تدعوا إلى حسن المعاملة لغير المسلم، كما أن الفهم الصحيح لمعنى الآية ينبغي أن يكون حاضرا في ذهن التالي لها والسامع، فالغلظة والجهاد المطلوبان في هذه الآية يقصد بها «حيث اقتضت الحاجة إليهما[2]»، مما يعني أن مجاهدتهم وإظهار الغلظة لهم تكون في حال تسببوا في سبب يقتضي ذلك، ويمكن التماس هذا الفهم من قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة:٨-٩]، فالله ﷻ في هذه الآية أباح للمسلمين البر وحسن المعاملة لغير المسلم بشروط؛ بينتها الآية وهي: أنهم لم يقاتلوكم في دينكم، ولم يساهموا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢٢٤.
(٢) السعدي، تيسير الكريم المنان، ص ٣٣٨.

في إخراجكم من دياركم ظلمًا وعدوانًا، وإنما النهي الوارد في الآيات السابقة من تولي الكفار يراد بهم كما في الآية هم الكفار الذين قاتلوكم في دينكم، وساهموا في إخراجكم من دياركم، بالتالي هم الذين يحرم توليهم، ويباح قتالهم لأنهم معتدون، ويجب الغلظة في معاملتهم (قتالهم).

٢. نقض العهد والميثاق مع المسلمين:

يقول الله ﷻ موجها نبيه ﷺ: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ [التوبة:١٢-١٥]، فهذه الآيات تفيد أحد أسباب جواز قتال الكفار والغلظة عليهم وهو نقض العهد وخيانة العهد، وهنا يأمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ وعموم المؤمنين بقتال أئمة الكفر الذين ينقضون الميثاق والعهد، ويبشر ﷻ بأنه سيعذب هؤلاء الكفرة بأيدي المؤمنين، ويخزهم، وينصر المؤمنين عليهم ويشف صدورهم.

وقد تمثل هذا رسول الله ﷺ في تعامله مع من عاهد من غير المسلمين، ومن أبرز تلك المواقف ما حدث لبني قريظة عندما خانوا العهد ونقضوا الميثاق الذي تم توقيعه مع النبي ﷺ، ولم يكتفوا بخيانة العهد، بل زادوا على ذلك بالتآمر الصريح مع العدو الغازي للمدينة وللمسلمين، وأوقعوا المسلمين بين فكي رحى طرفها من جانب الغزاة المعتدين (الأحزاب) والآخر اليهود الخائنين (يهود بني قريظة)، وزادوا على ذلك بنشر الشائعات في صفوف المسلمين، وتواطؤهم مع المنافقين

في المدينة لتسهيل دخول الأحزاب فيها، وفي المجمل فإن خلاصة الجرائم التي ارتكبت من قبلهم في هذه الغزوة هي خيانة العهد والميثاق، وتسهيل دخول المعتدين للمدينة المنورة، والتجسس لصالح المعتدين على المسلمين، وكذلك نشر الرعب والوهن والشائعات في مجتمع المسلمين، ومن المعلوم أن كل جريمة هذه الجرائم في حد ذاتها كافية للحكم على صاحبها بالموت حسب كل الأعراف والقوانين الدولية، فكان حكم الإسلام فيهم مؤيدا للحكم الذي صدر من سعد بن معاذ ﷺ، وذلك بقتل المقاتل منهم، وسبي الذرية والمال عنهم لصالح المسلمين.

وكذلك هو الحال عندما نقض أهل مكة الصلح الذي تم بينهم وبين رسول الله ﷺ، وذلك عندما عاونوا قبيلة بكر الموالية لهم على قبيلة خزاعة الموالية للرسول ﷺ والمسلمين، فقد كان من بنود الاتفاقية أن من شاء من القبائل الدخول في حلف قريش فله ذلك، ومن شاء من القبائل الدخول في حلف المسلمين فله ذلك، وكان من البنود أيضا توقف الحرب بينهم عشر سنوات، ولا يجوز لأي من الفريقين الإعانة في القتال لمن في حلفهم ضد أي من أحلاف الفريق الآخر، وبموجب هذه الإعانة فإن قريش قد خالفت شروط الصلح، فنبذ إليهم رسول الله ﷺ بإلغاء الصلح، امتثالا لأمر الله ﷻ له في قوله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال]، وكان من وراء هذا النقض للصلح فتح مكة الذي سماه الله ﷻ بالفتح المبين كما في سورة الفتح.

٣. انتهاك حرمات الله:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا) رواه

البخاري (رقم الحديث: ٣٥٦٠)، ومسلم (رقم الحديث: ٥٩٩٩)، ومحل الشاهد هو قول السيدة عائشة: (إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا)، «ومعناه: إذا انتهكت حرمة الله انتصر لله ﷻ، وانتقم ممن ارتكب ذلك[1]»، وإن مما لا شك فيه أن ضياع الحرمات يعني دمار المجتمعات، والفساد في الأرض سبب للهلاك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء:١٦]؛ فمن حرص النبي الكريم ﷺ على بقاء المجتمعات ورحمته بأهلها من نزول العذاب بهم كان يغضب شديد الغضب عند انتهاك الحرمات، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

ويؤكد ذلك حديث المرأة المخزومية التي سرقت، فجاء أسامة بن زيد رضي الله عنهما ليشفع فيها بعد ان طلب منه أهلها ذلك؛ فغضب رسول الله ﷺ، وقال له معلما ومؤدبا: " أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" رواه البخاري (رقم الحديث: ٣٤٧٥)، فكأنه يقول له: لا يا أسامة حفظ الحدود أمر مهم لا ينبغي تعديه، والشفاعة فيه غير جائزة متى وصلت للحاكم، بل يجب إقامة الحدود لضمان عدم الهلاك، وبين له ولجميع المسلمين أن جميع الناس في الحدود متساوون.

٤. الأذية لله والرسول والمؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٧-٥٨]، فالآية تشير إلى أن أذية

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج١٥، ص ٨٣.

الله ورسوله، وأذية المؤمنين سبب من أسباب اللعن والطرد الرباني من الرحمة في الدنيا والآخرة، بالإضافة إلى أنها من البهتان والإثم المبين، لذا فإن النبي ﷺ كان شديدا على من آذى الله ورسوله والمؤمنين سواء في قوله أو في فعله، ومن الشواهد التي تؤكد هذا ما صح عنه عليه السلام من حديث جَابر بن عَبدالله رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» أخرجه البخاري (رقم الحديث: ٢٥١٠ و٣٠٣١) ومسلم (رقم الحديث: ٤٦٤٠)، والسبب في هذا الأمر النبوي كما نقل الإمام النووي عن المازري قال" إنما قتله كذلك لأنه نقض عهد النبي ﷺ وهجاه وسبه، وكان عاهده أن لا يعين عليه أحدا، ثم جاء مع أهل الحرب معينا عليه[1]"، فكعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقًا على الإسلام والمسلمين، وإيذاء لرسول الله ﷺ، وتظاهرًا بالدعوة إلى حربه.

وكعب بن الأشرف كان شاعرا من اليهود، ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين، وقتل صناديد قريش في بدر قال: أحق هذا ؟ ولما تأكد لديه الخبر، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش، فنزل على المطلب بن أبي وَدَاعة السهمي، وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على أصحاب القَلِيب من قتلى المشركين، يثير بذلك حفائظهم، ويذكي حقدهم على النبي ﷺ، ويدعوهم إلى حربه، ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال، وأخذ يشبب في أشعاره بنساء الصحابة، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء، وحينئذ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»[2].

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج١٢، ص٣٧١.
(٢) الرحيق المختوم، ص ٢٨٣-٢٨٤.

٥. سب النبي ﷺ:

وهذا الأمر قريب من السبب السابق، ولكنه يختص بمن سب النبي ﷺ، وانتقص منه، فسب النبي ﷺ إن صدر من مسلم فهو كفر وردة، وإن صدر من غير مسلم فهو سبب موجب لقتله، فهو «من الأمور الناقضة للعهود، المانعة من الأمان[١]»، وقد نقل الشوكاني كلاما لأهل العلم فيمن اعتدى بالسب للنبي ﷺ، فنقل عن القاضي عياض قوله: «حُكْمُ الشَّرْعِ أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ كَفَرَ وَقُتِلَ[٢]»، كما نقل عن ابن المنذر قوله: «الاتِّفَاقَ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ صَرِيحًا وَجَبَ قَتْلُهُ[٣]»، وذكر بعض العلماء العلة في سبب كون أن من سب النبي ﷺ يجب قتله بكل حال، وهو أن سبه ﷺ يتعلق به حقان؛ حق لله، وحق لآدمي (النبي ﷺ)، فأما حق الله لأن فيه قدح في رسالته ورسوله وكتابه ودينه الذي ارتضاه لعباده، وأما حق الآدمي (حق النبي ﷺ) فلأنه أدخل المعرة على النبي ﷺ بهذا السب، وأناله بذلك غضاضة وعارا، وقد ورد في السنة النبوية أنه ﷺ أمر بقتل من سبه كما في قصة كعب بن الأشرف، فإن من بين الأسباب التي اقترفها سبه للنبي ﷺ.

ومن الشواهد على قتل من سب النبي ﷺ رواه أبو داود في سننه عنْ عَلِيٍّ ﷺ، «أَنَّ يَهُودِيَّةً كَانَتْ تَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ، فَخَنَقَهَا رَجُلٌ حَتَّى مَاتَتْ، فَأَبْطَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَمَهَا» (رقم الحديث: ٤٣٦٢)، وكذلك عن ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ، أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ، وَتَقَعُ فِيهِ، فَيَنْهَاهَا، فَلَا تَنْتَهِي، وَيَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، جَعَلَتْ تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَتَشْتُمُهُ، فَأَخَذَ الْمِغْوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا، وَاتَّكَأَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا، فَوَقَعَ بَيْنَ رِجْلَيْهَا طِفْلٌ، فَلَطَّخَتْ مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ

(١) محمد جاد، التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي، ص١٨٧.
(٢) الشوكاني، نيل الأوطار، ج١، ص ٣٦٠.
(٣) الشوكاني، نيل الأوطار، ج٧، ص ٢٢٤.

لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: «أَنْشُدُ اللَّهَ رَجُلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ»، فَقَامَ الْأَعْمَى يَتَخَطَّى النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلْزَلُ حَتَّى قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا صَاحِبُهَا، كَانَتْ تَشْتُمُكَ، وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي، وَأَزْجُرُهَا، فَلَا تَنْزَجِرُ، وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ، وَكَانَتْ بِي رَفِيقَةً، فَلَمَّا كَانَ الْبَارِحَةَ جَعَلَتْ تَشْتُمُكَ، وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخَذْتُ الْمِغْوَلَ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا، وَاتَّكَأْتُ عَلَيْهَا حَتَّى قَتَلْتُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ» (رقم الحديث: ٤٣٦١).

٦. الردة عن الدين وخيانة المسلمين:

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ، إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ: «اقْتُلُوهُمْ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطَلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ» رواه النسائي (رقم الحديث: ٤٠٦٧)، ولعل الأسباب التي دفعت إلى هذا الحكم النبوي الذي يظهر فيه الشدة والغلظة على هؤلاء النفر ما صدر عنهم من أفعال وأقوال، أما عكرمة بن أبي جهل، فإنه إنما أمر بقتله، لأنه كان هو وأبوه أشد الناس أذية للنبي ﷺ، وكان أشد الناس على المسلمين، وأما عبدالله بن خطل كان اسمه عبدالعزى، وقد أسلم، فسماه رسول الله ﷺ عبدالله، وهاجر إلى المدينة، وبعثه رسول الله ﷺ ساعيًا (أي يجمع الصدقات والزكاة)، وبعث معه رجلًا من خزاعة، وكان يصنع له طعامه ويخدمه، فنزلا في مجمع، وهو المكان الذي تجتمع الأعراب يؤدون فيه الصدقة، فأمره أن يصنع له طعامًا، ونام نصف النهار، واستيقظ والخزاعي نائم، ولم يصنع له شيئًا، فعدى عليه فضربه فقتله، وارتد عن الإسلام، وساق ما أخذ من الصدقة، وهرب إلى مكة.

وأما مقيس بن صبابة فقد أسلم، ثم أتى على رجل من الأنصار فقتله،

وكان الأنصاري قتل أخاه هشامًا خطأً في غزوة ذي قرد، ظنه من العدو، فجاء مقيس، فأخذ الدية، ثم قتل الأنصاري، ثم ارتد، وأما عبدالله بن أبي السرح لأنه كان أسلم قبل الفتح، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي، فارتدّ وهرب إلى مكة.

والملاحظ مما سبق من أفعال هؤلاء النفر أنها تستحق القتل لما فيها من أذية عظيمة، فعكرمة آذى رسول ﷺ، وآذى المسلمين بالقول والفعل والتحريض، أما عبدالله بن خطل، ومقيس بن صبابة فاستحقاقهما القتل سببه عدة أمور منها الارتداد عن دين الإسلام بعد الدخول فيه، والقتل العمد غدرا بالمسلم، والخيانة للأمانة وغيرها، أما عبدالله بن أبي السرح فلأنه ارتد عن الإسلام، وخان الأمانة في كتابة الوحي، بالإضافة لأذية النبي عليه السلام بأقواله، مع العلم بأنه لم يقتل من هؤلاء الأربعة إلا عبدالله بن خطل، ومقيس بن صبابة، أما عكرمة بن أبي جهل وعبدالله بن أبي السرح فقد أسلما، وقاتلا فيما بعد في صفوف المسلمين.

٧. الحرابة والإفساد في الأرض:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رضي الله عنه: أَنَّ رَهْطًا مِنْ عُكْلٍ، ثَمَانِيَةً، قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاجْتَوَوْا المَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْغِنَا رِسْلًا، قَالَ: «مَا أَجِدُ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَلْحَقُوا بِالذَّوْدِ»، فَانْطَلَقُوا، فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، حَتَّى صَحُّوا وَسَمِنُوا، وَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، فَأَتَى الصَّرِيخُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ، فَمَا تَرَجَّلَ النَّهَارُ حَتَّى أُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ فَكَحَلَهُمْ بِهَا، وَطَرَحَهُمْ بِالحَرَّةِ، يَسْتَسْقُونَ فَمَا يُسْقَوْنَ، حَتَّى مَاتُوا" رواه البخاري (رقم الحديث: ٦٨٠٢)، "قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: قَتَلُوا وَسَرَقُوا وَحَارَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، وَسَعَوْا فِي الأَرْضِ فَسَادًا[1]»، وجاء في رواية الإمام مسلم عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ:

(١) فتح الباري، مجلد ٦، ص ١٨٥.

«إِنَّمَا سَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْيُنَ أُولَئِكَ، لِأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرِّعَاءِ» صحيح مسلم (رقم الحديث: ٤٣٣٤)، وقد أورد الإمام البخاري هذا الحديث في باب المحاربين من أهل الكفر والردة، وكذلك أورده الإمام مسلم في باب حكم المحاربين والمرتدين، وذلك في إشارة منهما إلى حكم الحرابة والإفساد في الأرض، وقد ظهرت الشدة في تعامل النبي ﷺ مع القوم حيث قطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم بمسامير، ثم تركهم في الحرة حتى ماتوا؛ لأنهم ارتكبوا عدة جرائم منها الردة عن الإسلام، والحرابة للمسلمين من خلال ما قاموا به من إفساد في الأرض وقتل وتمثيل بالرعاة، فاستحقوا هذه العقوبات جزاء لما صنعوا، وقد نص القرآن الكريم على عقوبة الحرابة والردة، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة:٣٣].

٨. القصاص في الحدود:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، «أَنَّ جَارِيَةً وُجِدَ رَأْسُهَا قَدْ رُضَّ بَيْنَ حَجَرَيْنِ، فَسَأَلُوهَا مَنْ صَنَعَ هَذَا بِكِ؟ فُلَانٌ؟ فُلَانٌ؟ حَتَّى ذَكَرُوا يَهُودِيًّا، فَأَوْمَتْ بِرَأْسِهَا، فَأُخِذَ الْيَهُودِيُّ فَأَقَرَّ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُرَضَّ رَأْسُهُ بِالْحِجَارَةِ» رواه مسلم (رقم الحديث: ٤٣٤١)، وفي رواية أخرى له "فَقَالَ لَهَا: «أَقَتَلَكِ فُلَانٌ؟» فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا الثَّانِيَةَ، فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا، ثُمَّ سَأَلَهَا الثَّالِثَةَ، فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا، «فَقَتَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ حَجَرَيْنِ» صحيح مسلم (رقم الحديث: ٤٣٣٧)، فهنا اقتص النبي ﷺ من اليهودي الذي رض رأس الجارية بحجر بنفس الطريقة، ولم يتهاون معه، لأن الأمر اقتضى القصاص، والقصاص تم بالمثل مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة:١٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

٩. تكرار الخطأ بمحاربة الله ورسوله وقد سبق العفو عنه:

روى البيهقي في سننه عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاقَ قَالَ: كَانَ أَبُو عَزَّةَ الْجُمَحِيُّ أُسِرَ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي ذُو بَنَاتٍ وَحَاجَةٍ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ أَحَدٌ يَفْدِينِي، وَقَدْ عَرَفْتَ حَاجَتِي، فَحَقَنَ النَّبِيُّ ﷺ دَمَهُ وَأَعْتَقَهُ، وَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَعَاهَدَهُ أَنْ لَا يُعِينَ عَلَيْهِ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ، وَامْتَدَحَ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ عَفَا عَنْهُ. فَذَكَرَ الشِّعْرَ، ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّتَهُ مَعَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ الْجُمَحِيِّ، وَإِشَارَةَ صَفْوَانَ عَلَيْهِ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ فِي حَرْبِ أُحُدٍ وَتَكَفُّلَهُ بَنَاتِهِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أَطَاعَهُ، فَخَرَجَ فِي الْأَحَابِيشِ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ، قَالَ: فَأُسِرَ أَبُو عَزَّةَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: أَنْعِمْ عَلَيَّ، خَلِّ سَبِيلِي، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: « لَا يَتَحَدَّثُ أَهْلُ مَكَّةَ أَنَّكَ لَعِبْتَ بِمُحَمَّدٍ مَرَّتَيْنِ »، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ» السنن الكبرى (رقم الحديث: ١٢٨٤١)، وهنا لم يتسامح النبي عليه السلام مع أبي عزة لسببين: أولهما أنه لم يفي بعهده الذ قطعه على نفسه عندما عفى عنه النبي ﷺ أول مرة، والسبب الثاني ذكره رسول الله ﷺ بقوله: « لَا يَتَحَدَّثُ أَهْلُ مَكَّةَ أَنَّكَ لَعِبْتَ بِمُحَمَّدٍ مَرَّتَيْنِ » .

١٠. المؤامرة على الإسلام والمسلمين والتحريض على قتال المسلمين:

ومثال ذلك ما بدر من أهل خيبر من مكر ودسائس ضد الإسلام والمسلمين، خاصة بعد نزول بني النضير بينهم، فخيبر هي وكرة الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، فهم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين، وبغطفان وأعراب البادية، وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في

محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي الحقيق، وأسير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك. وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب، لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم- وهي قريش- كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب، وبعد المعاهدة التي تمت بين النبي ﷺ وقريش في الحديبية، تفرغ الرسول ﷺ لقتالهم، قال ابن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر، وبعد عدة مناوشات وحصار لها ولأهلها المتحصنون في الحصون، بدأت المفاوضات صالحهم على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء- أي الذهب والفضة- والكراع والحلقة إلا ثوبا على ظهر إنسان، ولما أراد رسول الله ﷺ قسمة الغنائم، قالوا له: يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها، ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم. وكان عبدالله بن رواحة يخرصه عليهم[1]، فالسبب في استحقاق أموال أهل خيبر، وإخراجهم منها مقابل الأمن على أنفسهم، وذرياتهم كان نتيجة ما صدر من أهل خيبر من مؤامرات ضد الإسلام والمسلمين.

(١) أنظر: الرحيق المختوم، ص ٤٣٠-٤٤٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم الصالحات بفضله وكرمه، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة وهداية للخلق أجمعين... وبعد:

فإن من خلال هذا البحث -الذي اعانني الله بفضله ومنِّه على إتمامه- يمكننا أن نؤكد على أن الرحمة خلق من أخلاق الإسلام والمسلمين، وصفة من صفات الله رب العالمين؛ فهو سبحانه الرحمن الرحيم، وهو كما قال عن نفسه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر]، وهي أيضا سمة من سمات النبي محمد ﷺ، وسجية من سجاياه، بل هو كله رحمة مرسلة؛ قال الله عنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، ولم تقتصر رحمته على المؤمنين، بل شملت غير المسلمين، كما أظهر البحث النتائج الآتية:

- توجيه الله ﷻ لنبيه ﷺ في معاملة غير المسلمين بما يقتضيه واجب الدعوة، وصفة الرحمة، وذلك من خلال دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والعفو والصفح عن الجاهلين منهم، وعدم ازهاق نفسه في سبيل هدايتهم؛ لأن الهداية بيد الله ﷻ وحده، كما أباح له وللمسلمين البر والقسط بغير المسلمين غير المحاربين.

- حِرصُ رسول الله ﷺ على دعوة وهداية غير المسلمين نابع من رحمته بهم، وقد ظهر هذا الحرص من خلال اهتمامه الشديد بدعوتهم للإسلام، والدعوة لهم بالهداية، ورفض الدعوة عليهم، ومن خلال الوصية بحسن معاملتهم، والبر بهم، وصلة ذوي القربى منهم إن لم يكونوا مقاتلين، والنهي عن قتل النساء والصبيان في حال الحرب معهم، كما نهم عن الاستيلاء على أموالهم إلا بحق شرعي، وأظهرت مواقفه معهم الكثير من التسامح والعفو، والتلطف بهم، وحسن الخلق في معاملتهم -ما لم يكن في ذلك انتهاك لحرمات الله وحقوق الآخرين-.
- ظهرت الكثير من الآثار المترتبة على رحمة النبي ﷺ بغير المسلمين من أبرزها دخولهم في الإسلام، وانتشاره بينهم، وزيادة محبته ﷺ في قلوب أعدائه.
- أظهرت النتائج أن شدة النبي عليه السلام مع بعض خصومه لها أسباب، من أهمها: الكفر والنفاق المصاحب للعداء والقتال، ونقض العهد والميثاق مع المسلمين، وانتهاك حرمات الله، والأذية لله والرسول والمؤمنين، وسب النبي ﷺ، وكذلك الردة عن الدين وخيانة المسلمين، والحرابة والإفساد في الأرض، ومن بين الأسباب أيضا: القصاص في الحدود، وتكرار الخطأ في محاربة المسلمين بعد العفو في المرة الأولى، وأيضا المؤامرة على الإسلام والمسلمين، والتحريض على قتال المسلمين.

وفي ضوء ذلك فإن الباحث يوصي بأهمية إبراز مظاهر الرحمة بغير المسلمين التي تضمنتها نصوص القرآن، وكذلك إبراز وصايا النبي ﷺ وتوجيهاته التي تؤكد على حسن المعاملة والرحمة مع غير

المسلمين، وتأكيدها من خلال مواقفه ﷺ ومعاملته لغير المسلمين، كما يوصي الباحث الرد على مزاعم أعداء الإسلام بأن النبي ﷺ كان شديدا في تعامله مع مخالفيه، واستشهادهم ببعض النصوص التي تحقق أغراضهم، وأن يكون الرد من خلال بيان أسباب الشدة في تعامل النبي ﷺ مع بعض غير المسلمين.

فهرس المصار والمراجع:

١. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم (١٤١١هـ). درء تعارض العقل والنقل. تحقيق: محمد رشاد سالم. ط٢، المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
٢. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٤هـ). لسان العرب. ط:٣، بيروت: دار صادر.
٣. أبو حيان، محمد بن يوسف بن حيان (٢٠٠١). تفسير البحر المحيط. تحقيق: عادل عبدالموجود وعلي معوض، بيروت: دار الكتب العلمية.
٤. الإمام أحمد بن حنبل (١٤٢١هـ). مسند الإمام أحمد. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون. إشراف الدكتور عبدالمحسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة.
٥. البخاري، محمد بن إسماعيل (١٤٢٢هـ). الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري). تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت: دار طوق النجاة.
٦. البروسوي، إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي (١٤٢٤هـ). روح البيان في تفسير القرآن. ضبطه وصححه وخرج آياته: عبداللطيف حسن عبدالرحمن. بيروت: دار الكتب العلمية.
٧. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (١٤٢٤هـ). السنن الكبرى. تحقيق: محمد عبدالقادر عطا. ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية.
٨. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (١٤١٩هـ). سنن الترمذي. تحقيق: مصطفى محمد حسين الذهبي. القاهرة: دار الحديث.

٩. الجرجاني، علي بن محمد (١٤٠٣). كتاب التعريفات. بيروت: دار الكتب العلمية.
١٠. الحسيني، أيوب بن موسى (د.ت). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. تحقيق: عدنان درويش -محمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة.
١١. الزمخشري، محمود بن عمر (٢٠٠٦). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. بيروت: دار الكتاب العربي.
١٢. السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث (د.ت). سنن أبي داود. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت: المكتبة العصرية.
١٣. السرجاني، راغب (د.ت). الرحمة في حياة الرسول ﷺ. بحث مقدم لجائزة معالى السيد حسن عباس الشربتلى، بإشراف رابطة العالم الإسلامي.
١٤. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر (١٤٢٠هـ). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
١٥. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي (٢٠٠٣). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. التتمة من عمل الشيخ عطيه محمد سالم. ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية.
١٦. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله (١٤١٣هـ). نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار. تحقيق: عصام الدين الصبابطي. مصر: دار الحديث.
١٧. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٢٠٠٠). جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري). تحقيق: أحمد محمد شاكر. بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٨. السرجاني، راغب (٢٠١٠). فن التعامل النبوي مع غير المسلمين. القاهرة: دار أقلام للنشر والتوزيع والترجمة.
١٩. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (١٤١٨هـ). فتح الباري شرح صحيح البخاري. الرياض: مكتبة دار السلام، دمشق: مكتبة دار الفيحاء.
٢٠. العفيفي، طه عبدالله (١٩٩٥). من صفات الرسول ﷺ الخِلقية والخُلقية. الدار المصرية اللبنانية.
٢١. العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (١٤٢١هـ). عمدة القاري شرح صحيح البخاري. ضبطه وصححه: عبدالله محمود محمد عمر. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٢. الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب (١٩٩٥). القاموس المحيط. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٣. المباركفوري، صفي الرحمن (١٤١٥هـ). الرحيق المختوم. ط٣، طنطا: دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية.
٢٤. المباركفوري، محمد عبدلرحمن بن عبدالرحيم (١٤١٠هـ). تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٥. نخبة من العلماء (٢٠٠٩). التفسير الميسر. بإشراف الشيخ صالح ابن عبدالعزيز ال الشيخ، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٢٦. نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن (٢٠١٠). التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم. الشارقة: كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة.
٢٧. النسائي، أحمد بن شعيب بن علي (١٤٠٦هـ). المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي). تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة. ط٢، حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية.

٢٨. محمد جاد، ناصر محمدي (١٤٣٠هـ). التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي. الرياض: دار الميمان للنشر والتوزيع.
٢٩. النووي، محي الدين (١٤١٩هـ). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. ط٥، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.